

الحكم والقيم في ديوان الإمام الشافعي

جليل اميدي

استاذ مشارك بجامعة طهران

E-mail: jalilomidi@yahoo.com

تاريخ القبول: ١٤٣٦/١١/٥

تاريخ الوصول: ١٤٣٦/٩/٨

الملخص

كان الإمام محمد بن إدريس الشافعي ذا حظ وافر من الذوق الشعري والعلم الواسع في اللغة والأدب. ولم يحظ هذا الجانب من شخصيته بالاهتمام والعناية بالقدر الذي حظيت به الجوانب الأخرى، سوى ما شهد به من يُعتدّ بقوله من أئمة العلم والأدب. ويسعى هذا البحث - بعد تعرّف الجانب الأدبي والشعري من شخصية الشافعي - إلى الإجابة على سؤال مطروح حول المضامين والمعايير الشعرية لديه. وتمّ التوصل في هذه الدراسة - بعد التتبع في المنظوم من كلامه - إلى أنّ معظم ما جاء في ديوانه من مفردات ومقطوعات، يدور في فلك الحكم والقيم ويكاد يقتصر على هذه المعاني والحث عليها كالعزّة والعفة والقناعة والسخاء والتوكّل والتقوى والعمل الصالح وفضل العلم وحبّ أهل بيت النبوة. وكل ذلك في مجتمع غلب عليه اللهو والترف وروح التكسب والاستعطاء والتخلي عن القيم على أوساطه الشعرية.

الكلمات الرئيسية: الشعر، الحكمة، القيم، فضل العلم، حبّ أهل بيت النبوة، الإمام الشافعي.

المقدمة

كان الإمام الشافعي^١ (١٥٠-٢٠٤هـ) يعيش في النصف الثاني من القرن الثاني من الهجرة في زمن بدأ يبرز فيه ظاهرتان في الأوساط الأدبية والشعرية. الأولى ازدهار الأموال وصّبّها على الأدباء والشعراء تكسباً واستعطاءً. والثانية تمازج الحضارات من شعوب غير عربية وثقافات غير إسلامية وتواردتها على المجتمع الإسلامي. ولكل من هاتين الظاهرتين أثرها على أصحاب الفكر والفن، لاسيما ذوي النفوس الميالة إلى اطلاق العنان أمام الشهوات. فكثر الأموال تتبعها حياة الترف والبذخ في غالب الأحيان والثقافات الواردة على المجتمع لها أثرها على القيم والمبادئ التي يلتزم بها ذلك المجتمع، خصوصاً تلك التي لها تأريخ في اللهو وتفنن في الترف. وقد أدّت هاتان الظاهرتان إلى حياة وصفها بعض الناقدين باللاهية للعبة ورأى غالب شعر الشعراء فيها داعراً فاجراً. (أمين، ١٩٩٠، ١٢٥) كما سماها بعض الباحثين في تاريخ الأدب العربي، بالانحطاط الأخلاقي، (الفاخوري، ١٩٨٧، ص ٣٥٢) حيث شاع في المجتمع تعاطي الملهي والمسكرات والأخذ بأوفر حظّ من حظوظ الدنيا وزهرتها والخوض في أوسع مجال من مجالات الترف. وفي الحقيقة حينما ينظر الباحث إلى ساحة الشعر وحياة الشعراء في ذلك العصر، يجد امامه ما هو أوسع وأعمق من اللهو والترف وانحطاط مستوى القيم الأخلاقية؛ فيواجه شعراء يعقدون حلقات معاورة الخمر والغناء ويتغزلون بالخمر والغلمان والجواري وقد سادت عليهم روح التلون في المدح والهجاء متقلبين في العاطفة والإخلاص؛ فلا يمدحون أحداً إلّا للتكسب ولا يهجون خصومه إلّا للاستعطاء. وقد أدّى

بهم حبّ التكسب الذي لايفارقهم في أكثر الأحيان إلى ذلّ السؤال وعرض النفس للؤم والهوان؛ فأشرف القيم عندهم الفخر بالنفس أو بالعشيرة وآثارها وأمجادها وما بقي من حميتها الجاهلية. افتخروا كما قيل بالرمم البالية بدلاً من الهمم العالية. والمفاخرة كما هو معروف معظمها دعايات ومغالاة أدبية في الموازنة بين مناقب قوم ومثالب آخرين.

و سبق هذا العهد عقود ظهر فيها شعراء الهجاء والفخر والتكسب كالأخطل والفرزدق وجريز. وعاشه من الشعراء من اشتهر بالمدح والرتاء والمجون والهجاء، كبشار وأبي نواس. فالأول وضع كل القيم تحت قدميه؛ ليعترف بدين أو مبدأ أو ضمير ولايرقب في أحد إلا ولا ذمة ولايتورع في شيء (الفاخوري، ٣٧١). وأمّا الثاني فحسبك قوله:

و القيث عني ثياب الهدى وخضت بحوراً من المنكر (أبو نواس، ٢٠٠٨، ٢١٨)

وقوله في الجهر بما كان ينتهكه من المحرمات:

فإن قالوا حرامٌ قل حرامٌ ولكنّ اللذائذ في الحرام! (أبو نواس، ٣٧٦)

و مجمل القول أنه قد بلغ الأمر في هذا العهد إلى حد قيل في شأنه: «الواقع أنّ كثيراً من الشعراء في ذلك العصر- أفرطوا في دعوة الناس إلى الفجور والإباحة وحملهم إلى الاستهتار». (أمين، ١٤٨/١). حيث كان أظهر مميزات شعره الفجور وأشهر شارات شعرائه الاستهتار. وقدالتفت بعض أهل الفقه والفتوى طوعاً أو كرها إلى عالم الشعر والشعراء قاصدين استخدام المنظوم من الكلام في خدمة الأدب الملتزم بالقيم الأخلاقية والمعايير الشرعية، فكان على رأسهم الإمام الشافعي الذي كان - رحمه الله - مع تفرّغه لعلوم الشريعة وبراعته في كل فن من فنونها- ذا حظٍ وافر من الأدب واللغة والذوق الشعري. شهد بذلك كثير من نقاد أهل العلم والأدب كالإمام أحمد بن حنبل وابن هشام النحوي وصاحب المغازي وقاسم بن سلام والمبرد وابن رشيّق وابن سريج والزيبر بن بكار ويونس بن عبد الأعلى والجاحظ والحافظ الذهبي. (الذهبي، سير الأعلام النبلاء، ٤٨/١٠) أمّا في عصرنا الحاضر فقد شهد على ذلك بعض من كتب على نفسه أن يقف موقف الحكم العدل في كل ما يكتبه، فقال بعلوّ شأنه في مجالات عدة بقوله: «يكاد المؤرخون يجمعون على عذوبة منطقته وحسن بيانه وذكائه وقدرته الفائقة على الجدل وقوته في التفكير ومهارته في الاستنباط». (أمين، ٢٢١/٢)

أمّا السؤال الذي نحن بصدد الإجابة عليه فهو ما هي المجالات التي خاضها أو الأبواب التي طرقها الشافعي في المنظوم من كلامه؟ وما افتراضناه - بعدتتبع تراثه الشعري- أنه لم يأت بكلام منظوم إلا وله صلة بالحكمة والقيم الأخلاقية والشرعية. والهدف من طرح السؤال وبسط المقال في الإجابة عليه، التعريف بالجانب الشعري- صورة ومضمونا - من شخصية الشافعي الذي أرخت عليه جوانبها الأخرى أستاها والذي لا يتفطن له إلا من كان له إلمام بما جاء في ديوانه. وسوف نركز على الموضوع بعد إلقاء نظرة عابرة على نشأته ومكانته في الأدب والشعر. هذا ولم أجد فيما بين يديّ من الكتب والمقالات والمواقع الإلكترونية من كتب تتطرّق الى هذا الموضوع إلا ما كتبه بعض الباحثين حول الشافعي وآل البيت والذي سنشير إليه في محله.

١. الشافعي ومكانته الأدبية والشعرية

إنّ الشافعي قرشي النسب وهذا بحد ذاته من مؤهلات الفصاحة طبقاً لما روي عن النبي (ص): «أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أبي من قريش» (المحلى، ١٤٢٩، ٢٨١/١). حيث علل (ص) فصاحته بنسبه القرشي. وقد عاش حوالي سبعة عشر-

عاماً في بنى هذيل - وهم كانوا يعدّون من أفصح العرب - يتتبع لغتهم ويحفظ شعرهم حتى فاق القرآن وبلغ رتبة أذعن لها أعلام أئمة اللغة والأدب. فقد روى أصحاب المعاجم أنّ الأصمعي كان يأخذ لغة بنى هذيل وشعرهم وكذلك التراث الشعري للشنفرى من الشافعي ويعتمد عليه في حل غرائب اللغة ونوادر الأقوال أكثر مما كان يعتمد على غيره والحال أن الأصمعي كان يقضي أيام الشيخوخة والشافعي مازال في ريعان شبابه. (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩٩٠، ١٠/ ٤٩؛ دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٨٧، ٧٣/ ١٣) وكان المبرد يعدّه من أبرز الشعراء والأدباء في عصره. كما أنّ ابن رشيقي يعتبر شعره من أجمل أشعار عصره تفتناً (الذهبي، سير الأعلام النبلاء، ١٠/ ٨٠؛ الزركلي، ٢٦/ ١٩٨٢، ٦). وروي أيضاً أنّ جماعة من أهل الأدب كانوا يحضرون حلقات الشافعي وهو يلقي دروساً في الفقه وأصوله. وحينما سئلوا ما شأنكم والتفاريح الفقهية المعقدة؟ أجابوا بأنّا جئنا نستمع إلى أدب الشافعي وعذوبة كلامه. (ابن السبكي، ١٩٧٨، ١٠٠/ ١؛ الحموي، ٢٨١/ ١٩٩٢، ١٧؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ٢٠٠٠، ١٤٧/ ٢)

وإمّا بالنسبة إلى الشعر خاصة فقد كان الشافعي مطبوعاً عليه ينشده في أكثر أحيانه ارتجالاً حسب ما يقتضيه حال أو سؤال من غير مكث أو عيٍّ أو إتعاب نفس. ينقل الرواة أنّه سُئل بكلام منظوم عن مسألة فقهية أو عاطفية فأجاب عليه بكلام مثله وزناً وقافية. فقد روى صاحبه الربيع بن سليمان إنه كان جالساً عنده فإذا بشاب بيده رقعة أعطاها الشافعي فنظر فيها وكتب عليها شيئاً وردّها إلى الشاب. فقرأها الشاب ومضى. فتبعته وقلت: واللّه لايفوتني فتيا للشافعي فأخذت الرقعة منه فوجدت فيها:

سَلِ الْعَالَمَ الْمَكِّيَّ هَلْ فِي تَزَاوِيرٍ وَضُمَّةٍ مُشْتَاقٍ الْفَوَادِ جَنَاحُ ؟

فإذا الشافعي قد أجاب بخطه وتوقعه:

أَقُولُ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهَبَ التَّقَى تَلَاصِقُ أَكْبَادٍ بِهِنَّ جِرَاحُ !

و انكرتُ على الشافعي أن يفتي بجواز التزاوير والضم للشباب. فقلت: يا أبا عبد الله تفتي بمثل هذا؟ فقال يا أبا محمد فتى هاشمي قد عرس هذا الشهر يعني رمضان وهو حدث السن فسأل: هل عليه جناح أن يقبل أو يضم حليلته؟ فأفتيته بهذا. (الشربيني، ١/ ٤٣١) وروى أيضاً ياقوت الحموي فقال بلغني أن فتى جاء إلى الشافعي برقعة فيها:

سَلِ الْمَفْتِيَ الْمَكِّيَّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ إِذَا اشْتَدَّ وَجْدٌ بَامِرِيٍّ كَيْفَ يَصْنَعُ ؟

فكتب الشافعي تحته:

يُداوِي هَوَاهُ ثُمَّ يَكْتُمُ وَجْدَهُ وَيَصْبِرُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ وَيَخْضَعُ

فأخذها صاحبها وذهب بها ثم جاء وقد كتب تحت الجواب:

و كَيْفَ يداوِي والهوى قَاتِلُ الْفَتَى وَفِي كُلِّ يَوْمٍ غَصَّةٌ يَتَجَرَّعُ ؟

فأجاب عليه الشافعي بخطه:

فان هو لم يصبر على ما أصابه فليس له شيء سوى الموت أنفع! (الحموي، ٣٠٦/ ١٧)

أما الجانب النظري فالمعروف أن الشافعي لم يشارك في المناقشات التي دارت بين علماء الشريعة حول جواز الشعر ومنعه، علماً بأنّ تلك المناقشات أثارها قراءات مختلفة -من آيات قرآنية وسنن مروية عن النبي (ص)- متضاربة بحسب الظاهر لكنها متناسقة في الواقع يجري بعضها في غير ما يجري فيه البعض الآخر (ناصر، ٢٨٠/ ١٤٠٦، ٥؛ الزحيلي، ٢٠٠٣،

٢٧٠/١٠، سرباز، ١٤٣١، ٣٢). من هذا المنطلق نرى الشافعي قد وقف موقفاً معتدلاً من الشعر كما هو معروف منه في المجالات الأخرى. فكان لا يجيزه تماماً ولا يردّه بتاتاً. فقد روي عنه أنه قال: « الشعر كلامٌ؛ حسنه حسن وقبيحه قبيح». (الغزالي، ١٩٨٦، ٢٩٧/٢) ومع هذا كله لم يكن الإمام حريصاً أو مقبلاً على الشعر لا نظماً ولا حفظاً. خصوصاً بعدما تفرغ لعلوم الشريعة فلم يصبو يوماً إلى الاشتغال بالشعر ولا إلى الانخراط في سلك الشعراء؛ بل حرص كل الحرص على العلوم الشرعية من حديث وفقه وأصول. وكان يرى أن الإقبال على الشعر والاستكثار منه يستخف بالعلماء و يقلل من شأنهم. كما جاء في ديوانه:

و لو لا الشعرُ بالعلماء يُزري لكنْتُ إليومَ أشعرَ من لبيدٍ (الشافعي، ١٩٨٤، ٧٢)

فلم يكن ينظم شعراً إلا إذا ورد عليه سؤال منظوم أو اشتد عليه حال أو مقال أو غلبته عاطفة تضطره إلى بيان الحالة النفسية التي تعتريه. وأما من الناحية الفنية، فكان كل ما نظمته الشافعي مفردات أو مقطوعات وليست قصائد طوالاً. ولعل ذلك يعود إلى أمرين: الأول أنه انشد معظم شعره إرتجالاً أجابة على سؤال أو ردّ عليه أو ردة فعل على ما واجهه من الأحوال والظروف. والثاني أنه لم ينظر إلى الشعر إلا كوسيلة لأداء معنى حكيم أو أخلاقي. وهذا الغرض يحصل في غالب الأحوال بمقطوعات قصار ولا يحتاج إلى التوسع في الكلام. وكل ذلك كان قد أتى به بحسن السبك والصياغة ومثانة اللفظ والعبارة خالياً من التثنيق والتصنع والمحسنات اللفظية المتكلف فيها. فقلماً حفل كلامه المنظوم بضرب من ضروب البديع. لذا من قال إنه: «حري بهذا الشعر أن يوصف بالسهل الممتنع»، (بديع، ٢٠٠١، ٣٤) فقد نظر إلى هذه المواصفات.

و اللافت للنظر أنَّ الرواة لم يذكروا أنَّ للشافعي ديواناً إلا ما جاء في بعض المعاجم عن أنَّ أبا عبد الله محمد بن الغانم قال إنه قد جمع ديوان الشافعي في مجلدٍ واحدٍ (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٠/ ٥٨). فإن صحَّ ذلك فهو أول من اهتم بجمع شعره. ثم توقف هذا الاهتمام إلى أن جاء القرن العشرون؛ قرن إقبال الباحثين والقراء على شعر الشافعي جمعاً وتحقيقاً وقراءةً. منهم محمد مصطفى (١٩٠٣) ومحمود إبراهيم هيبه (١٩١١) وزهدي يكن (١٩٦١) ومحمد الزعبي ونعيم زرزور وإميل بديع يعقوب (٢٠٠١). وقد افترض الباحث الأخير ضياع قسم من أشعاره راجياً أن يكون المستقبل معيناً في الكشف عنها. وقد دعم إميل يعقوب هذا الافتراض بجملة من الأمور منها شهادة أئمة النقد واللغة بطول باعه في الشعر وشهادة أمثال المبرد بأنه أشعر الناس وأنَّ شعره بلغ مستوى من الجودة لا يبلغها مقلٌّ. ومنها أيضاً أنه كلما نهض باحث لتحقيق ديوانه وجد مقطوعات ومفردات فاتت من سبقه (بديع، ٣٥).

٢. موضوعاته الشعرية

و أما من ناحية الموضوع فيصح لنا القول بأنه قد اهتم بكل المعايير الحكيمة والمضامين الأخلاقية. فنرى ديوانه مرآة تنعكس فيها الحكم والقيم ونرى خلف كل بيت من أبياته صورة رجل أنوف لا يتاجر بعزته ولا يسامح في كرامته؛ فقد نصب نفسه للدعوة إلى كل ما كان فيه شئ من الفضائل والمعالي كعزة النفس وكرامتها والتقوى والمروءة والقناعة والمحبة والصداقة وطلب العلم. وبالنظر إلى الأسباب والخلفيات، وبدراسة أونتولوجية تعم كل ما في ديوانه، يتأتى لنا القول بأن كل ما تركه الشافعي من التراث الشعري الحكيم الأخلاقي، صدر من مصادر ثلاثة متمازجة:

الأول ما أورثته عرب ما قبل الإسلام وما قبله الإسلام لموافقتها لمبادئه أو لعدم مصادمتها لتلك المبادئ. فقد كان لهم

مع ما يروى عنهم من الرذائل والدنایا، ثقافة معروفة في الحكمة والاخلاق الفاضلة والسلوك المحمود. ومن نظر إلى بعض دواوين الشعر الجاهلي كديوان زهير بن أبي سلمى وعنتر بن شداد مثلاً وجد فيه باباً من أبواب الكرم والوفاء والعزة والحلم والأناة والسماحة والسخاء والمضيبي العزائم (المبارك فوري، ١٤١٩، ٣٧).

الثاني الشريعة الإسلامية ومبادئها العقائدية والسلوكية. فإنها لم تدع ناحية من نواحي الخلق الحسن إلا وقد دعت إليها وحشت على التمسك بها بقوة وحماس. والثالث نفسية الشافعي ونزعتها الأخلاقية؛ فهو رجل مطبوع على فضائل الخلق الحسن تواق الى معالى الأمور.

فمن تمازجت فيه هذه العناصر وأخذ منها فلا غرو أن نراه أخذ على عاتقه كل فضيلة وعلو وعمد إلى الإرشاد والنصح والنطق بالحكمة والخلق الحسن؛ حتى ظهر كممثل للناحية الأخلاقية في الحياة الاجتماعية في عصره، يدعو إلى كل ما هو معروف ويحارب كل منكر وكل لهو أو لؤم أو هوان أو شذوذ يأباه الطبع السليم. ولعلّ لأبالمع في شأنه إن قلت إن ما في أيدين إلان الكلام المنظوم المروي عن الشافعي، ليس إلا ردة فعل على ما غلب على أحوال أغلب شعراء عصره من حياة اللهو والاستهتار والمجون؛ إذ لم يكن من المتوقع من رجل تلاقت في نفسه وتمازجت ثقافة أخلاقية عريقة وأسس شرعية ونزعات نفسية مترفعة وهو عالم الدين المتسم بالصلاح والورع والمتصف بعدوبة المنطق وجودة الشعر في نفس الوقت، أن يعتزل ويغلق عليه بابه وينأى بنفسه تجاه الظروف الراهنة من انحطاط لمحاسن الخلق وتردّد لمعالي الفضائل؛ بل وجدناه - وهذا المتوقع منه - يجابه كل ما كانى يدعو إليه الشعر اللاأخلاقي السائد في عصره. فكل ما أتى به من الشعر يدور في هذا الفلك ويكال بهذا المكيال. فلنتعرض لبعض ما كان يدعو إليه، مستشهدين ببعض ما قاله فيه كنماذج لجملته وقد " قيل القليل يدل على الكثير والجرعة تدل على الغدير":

١-٢. عزة النفس وكرامتها: كان الشافعي منيع الطبع مترفعاً متعزراً لا يضع نفسه موضع الذل والهوان. ومن شدة الترفع كان يرى التنازل أمام الذل والمهانة كفرة كما قال:

همّتي همّة الملوك ونفسي
نفس حرة ترى المذلة كفرة (الشافعي، ٧٦)

و إذا كان المرء كريم النفس فلا ينقص من قيمته رثاءة ملابسه كما لا يضرّ السيف القاطع إخلاق غمده. وملابس الشافعي وان كان لا يشتريها أحد بفلس لكن فيها نفس ، بعضها أجل وأكبر من نفوس الناس طراً^٢:

على ثياب لو تباع جميعها
بفلس لكان الفلس منهم أكثرا

و فيهنّ نفس لوتقاس ببعضها
نفوس الوري كانت أجل وأكبرا

و ما ضرّ نصل السيف اخلاق
إذا كان عضباً حيث وجهته قرى؟ (الشافعي، ٧٧)

غمده

و في هذا المجال بلغ الشافعي رتبة قال فيها لولا خشية الله تعالى لحسبت الناس عبيدي!

و لو لا خشية الرحمن ربّي
حسبت الناس كلّهم عبيدي (الشافعي، ٧٢)

و كان يعمل عمل الأثرياء في زي الفقراء؛ غني بلا درهم يمرّ على الناس مرور الملوك:

فصرت غنياً بلا درهم
أمر على الناس شبه الملك (الشافعي، ١١٢)

فهو فقير يتظاهر بالغنى يستخفي بفقره من الرفقة ويشكو إلى الله فاقتة:

و أظهر أسباب الغنى بين رفقتي ليخفاهم حالي وإني لمعدم

و بيني وبين الله أشكو فاقتي حقيقاً فإن الله بالحال أعلم (الشافعي، ١٣٣)

فكانت نتيجة هذا الترفع الثقة بالنفس والاستغناء عن الغير والفرار من المن :

لاتحملن لمن يمن لا تحملن لمن يمن

و اختر لنفسك حظها و اصبر فإن الصبر جنة

من الرجال على القلوب من أشد من وقع الأسنة (الشافعي، ١٣٩)

كما كان يرى الوقوف أمام أبواب الملوك مذلة فينصح القاريء بأن يستغني بالله ويكرم نفسه ولا يقف على بابهم:

فاستغن بالله عن أبوابهم كرمًا أن الوقوف على أبوابهم ذل (الشافعي، ١١٩)

ويضيف قائلا حتى لو ألجأتك حاجة إلى الاستعانة بالغير فلا تقصد إلا من يعترف بقدرك:

ماحك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

و إذا قصدت حاجة فاقصد لمعترف بقدرك (الشافعي، ١١١)

٢-٢. القناعة والإعراض عن ملذات الدنيا: إن كانت القناعة كنزاً لا ينفد كما قيل، فالشافعي من الموقنين بهذا المبدأ

الأخلاقي؛ فهو يؤثر عز القناعة وكف النفس عن زخارف الدنيا على ذل الطمع ومهانة السؤال؛ فتجده يتمسك بأذيال

الزهد معتقداً أن الغنى الحقيقي هو الغنى عن الشيء وليس الغنى بالشيء:

رأيت القناعة رأس الغنى فصرت بأذيالها متمسك

فلا ذا يراني على بابه و لا ذا يراني به منهيمك (الشافعي، ١١٢)

xxx

غني بلا مال عن الناس كلهم و ليس الغنى إلا عن الشيء لا به (الشافعي، ٥٤)

و في موضع آخر تراه يصف نفسه بأنه ليس بعديم القوت في الحياة ولا عديم القبر بعد الممات وإذا ما قنع طوال حياته

فلماذا يخاف من زيد أو عمرو ؟ فيقول:

أنا إن عشت لست أعديم قوتاً و إذا مت لست أعديم قبرا

و إذا ما قنعت في عمري فلماذا أخاف زيدا وعمروا ؟ (الشافعي، ٧٦)

و أما اعتقاده في الحرية والعبودية فاعتقاد من نوع آخر إذ يصرح أن الحرية إنما هي في القناعة كما أن العبودية في

الطمع وأن إراحة النفس في إمارة المطامع كما أن صيانتها في إحياء القناعة:

العبد حر إن قنع و الحر عبد إن طمع

فاقنع ولا تقنع فلا شيء يشين سوى الطمع (الشافعي، ٩٥)

xxx

أمت مطامعي فأرحت نفسي فإن النفس ما طمعت تهون

و أحييت القنوع وكان ميتاً ففي إحيائه عرض مصون

إذا طمع يخل بقلب عبد علته مهانة وعلاه هون (الشافعي، ١٤١)

و إذا حل الطمع بقلب امريء، استولى عليه الهوان وبالمقابل إذا حلت القناعة بقلب أحد فهو ومالك الدنيا سواء:

إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء (الشافعي، ٤١)

و أما الدنيا وجمالها الرائع فليست في نظره إلا غروراً وباطلاً وما برقها الخلاب إلا كسراب لاح في فلاة؛ ويرى أن السلم في اجتنبها والتنازع في اجتذابها:

و من يذق الدنيا فأني طعمتها و سيق إلينا عذبها وعذابها

فلم أرها إلا غروراً وباطلاً كما لاح في ظهر الفلاة سرائها

و ما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همها نأجتذبها

فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها (الشافعي، ٥٢)

٣-٢. التقوى والعمل الصالح: للتقوى والعمل الصالح وترك هوى النفس مكانة في الشريعة لاتخفى على أحد. فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: «و تزودوا فإن خير الزاد التقوى» (البقرة، ١٩٧). وقال أيضاً: «و العمل الصالح يرفعه» (فاطر، ١٠). وقال في آية أخرى: «و أما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى» (النازعات، ٤٠-٤١) كما روي عن رسول الله (ص) فيما يناجي به ربه: « اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكيها» (ناصف، ٥/١٢٤). فلا عجب ان نرى رجل دين وخلق حسن كالشافعي يأتي بهذه المعاني فيايبات شعر أو حكيم. فمن وجهة نظره تعد تقوى الله تعالى خير أو أفضل ما يتمتع به الإنسان في حياته:

يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا (الشافعي، ٦٧)

و يرى الشافعي أن اقتراف السوء من الأعمال محرم على ذي النفس التقية. وليس ببعيد عنه أن يكون المراد بالسوء أو سوءات الأمور عنده هو أعم مما يعد معصية في الشريعة وكل ما هو من الرذائل في ميزان الأخلاق والآداب والمروءات؛ إذ المفروض أن الشافعي كان مهتماً بل مغرمًا بالكتاب والسنة وهما يحثان على اجتناب المعاصي وكل ما يخالف المروءات من دناءة الطبع وخسة النفس. فقد روي عن رسول الله (ص) أنه قال: «إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها» (البيهقي، لا، ج ١٠، ص ١٩١) أي دنيها. فقد قال:

قدع عنك سوءات الأمور فإنها حرام على نفس التقى ارتكابها (الشافعي، ٥١)

و روي عنه أنه شكى إلى شيخه وكيع ابن الجراح سوء حفظه للعلوم فأرشده إلى ترك المعاصي وأخبره بأن العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده الصالحين:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأعلمني بأن العلم نور ونور الله لا يعطى لعاص (الشافعي، ٩١)

و يرى أن الفطن من خاف فتن الدنيا ولم يتخذها وطناً بل اتخذ صالح الأعمال فيها سفينة يركبها وينجوبها من لجتها:

إن لله عبادةً فطنا تركوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحى وطنا

جعلوها لجةً واتخذوا صالح الأعمال فيها سقناً (الشافعي، ١٣٨)

و أما ترك الهوى فقد نظر إليه الشافعي كميزاني وزن به العمل ويميز به الخطأ من الصواب. يقول في هذا المجال:

إذا حازَ أمرُكَ في معنيين ولم تدرِ فيما الخطأ والصواب

فَدَعَ ما هويتَ فإن الهوى يقودُ النفوسَ إلى ما يُعاب (الشافعي، ١٥٦)

٢-٤. حسن التوكل والرضا بالقضاء: ومما جاء به شريعتنا الغراء التوكل على الله في عاجلنا وأجلنا حسب ما دعا إليه الكتاب العزيز والسنة الشريفة. وكان الشافعي مدركاً لهذا المعنى ومؤمناً به إيماناً لا يشوبه شائب. فتجده يعبر عنه بأصرح التعابير وأدقها خصوصاً فيما يتعلق بمستلزمات معاش الدنيا ومتطلباتها من نفقات ومؤن؛ فتراه لا يشك في أن الله تعالى هو الرزاق بفضلِهِ وكرمه فلا يتحسر على ما فات ولا يطمع فيما لم يأت بعد:

توكلْتُ في رزقي على الله خالقي وأيقنْتُ أَنَّ اللهَ لا شكَّ رازقي

و ما يكُ من رزقي فليس يفوتني ولو كانَ في قاعِ البحارِ العوامي

سيأتي به الله العظيمُ بفضلِهِ ولو لم يكن مني اللسانُ بناطقي

ففي أي شيء تذهب النفسُ حسرةً وقد قسّم الرحمنُ رزقَ الخلائقِ؟ (الشافعي، ١٠٩)

و كان يرى أن ما يعرض للنفس من قلق وضجر وسهر في طلب الأمور المتعلقة بمعيشة الدنيا والتي قد تقع وقد لا تقع، فنَّ من فنون الجنون وإنَّ من كفاه ربُّه بأمره فسوف يكفيه في غده:

سَهَرْتُ أعينٌ ونامت عيونٌ في أمورٍ تكون أو لا تكون

فأدرا الهَمَّ ما استطعتَ عن النفد سِ حملائِكَ الهمومَ جنون

إنَّ ربًّا كفاكَ بالأمرِ ما كا نَ سيكفيكَ في غدٍ ما يكونُ (الشافعي، ١٤٠)

أما فيما يخص الرضا بالقضاء أي الاستسلام أمام سنن الله الجارية في تفاصيل الحياة والتي لامرء لها ولا تبديل ولا تحويل، فللشافعي فيه مقال واسع يدعو فيه إلى التصبر والثبات وترك الجزع؛ مشيراً إلى أن بعض ما يحدث للإنسان من حزن أو سرور لا بقاء له؛ أتت به سنة وستقضي عليه سنة أخرى. والبعض الآخر محتوم مبرم لا رادَّ له فلا يبقى للإنسان إلا الاستسلام والاصطبار:

دَعِ الأيامَ تفعل ما تشاء وطِبْ نفساً إذا حكمَ القضاء

و لا تجزع لحادثةَ الليالي فما لحوادثِ الدنيا بقاء

فلا حزنٌ يدومُ ولا سرورٌ ولا بؤسٌ عليك ولا رخاء

و من نزلت بساحته المنايا فلا أرضٌ تقيه ولا سماء

و أرضُ الله واسعةٌ ولكن إذا نَزَلَ القضاء ضاقَ الفضاء

دَعِ الأيامَ تغدر كل يوم فما يغني عن الموت الدواء (الشافعي، ٤١)

و يؤكد الشافعي أن إرادة الإنسان لا تغلب مشيئة الله أبداً. فلا وجه لإرادة تعارضها إرادة الله ولا طائل تحت طلب ترده مشيئة الله تعالى:

أفكرُ في هوى إلفي وصبري وأحمد هممتي وأذم دهرِي

و ما قصرتُ في طلبٍ ولكن لربِّ الناسِ أمرٌ فوقَ أمري (الشافعي، ٨٤)

و يقول:

يُرِيدُ المرءُ أَنْ يُعْطَى مِنْهُ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا مَا أَرَادَا (الشافعي، ٦٧)

و يقول أيضا:

و ما لإِرَادَتِي وَجَهٌ إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ لِي مَا لَا أُرِيدُ (الشافعي، ٦٨)

٥-٢. التعايش السلمي مع مَنْ تحبه أو تكرهه: الإمام الشافعي وإن كان يسئ الظن ببعض من يعاشره من أبناء عصره ويشير إلى أنَّ سوء الظن من حسن الفطنة وأن الظن الحسن قد يرمي بصاحبه إلى المخمصة.^٤ إلاَّ أنَّه كحامل من حَمَلَةِ الشريعة ورائد من رُوَادِ قيمها، لايَجُزُّ به ذلك إلى قلة الاكتراث بالاخلاق والقيم. فهي هو يوصي بحسن المعاشرة والسماحة حتى مع من اعتدى وبقبول العذر حتى ممن تشك في صدقه عند اعتذاره:

و عَاشِرٌ مَعْرُوفٍ وَسَامِحٌ مَنَ اعْتَدَى وَدَافِعٌ وَلَكِنْ بَالَتْي هِيَ أَحْسَنُ (الشافعي، ١٦٣)

و يقول:

إِقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِرًا إِنْ بَرَّ عِنْدَكَ فِيمَا قَالَ أَوْ فَجَرَا

لَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ وَقَدْ أَجْلَكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرًا (الشافعي، ١٦١)

و الشافعي في هذا المجال لا يقوم مقام الخطيب الواعظ البحث بل تجده يلتزم شخصياً بما يوصي به غيره ويتعظ بما يعظبه الاخرين. فقد قال فيما حكاه عن نفسه أنه قد عفا عمن أساء إليه ثم أتاه معتذراً:

قِيلَ لِي قَدْ أَسَا عَلَيْكَ فَلَا تُقِلُّ لِي قَدْ جَاءَنِي وَأَحْدَثَ عُذْرًا وَمَقَامُ الْفَتَى عَلَى الدُّلِّ عَارٌ

قُلْتُ قَدْ جَاءَنِي وَأَحْدَثَ عُذْرًا دِيَةُ الذَّنْبِ عِنْدَنَا اعْتِذَارُ (الشافعي، ٨٠)

و تجد نفسك جالسا بين يدي طبيب نفسي حين يخاطبك الشافعي قائلاً إِنَّ الْأَخْذَ بِالْعَفْوِ وَإِظْهَارَ الْبُشْرِ وَطَلَاقَةَ الْوَجْهِ وَمَجَانِبَةَ الْحَقْدِ وَالضَّغِينَةَ يورث ارتياح النفس، وأن مخالطة الناس مع مشاكلها لابد منها فإنَّ الوحدة وحشة كما أنَّ الاعتزال يفضي إلى قطع المودة التي طبع عليها البشر:

لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدٍ أَرْحَتُ نَفْسِي مِنْ هَمِّ الْعَدَاوَاتِ

إِنِّي أَحْيِي عَدُوِّي عِنْدَ رُؤْيَيْهِ لِأَدْفَعِ الشَّرَّ عَنِّي بِالتَّحِيَّاتِ

الناس داء وداء الناس قريبهم وفي اعتزالهم قطع المودات (الشافعي، ٥٧)

و في السياق نفسه يذكر أنه يتعامل مع الآخرين على حسب ثقافتهم. فمن كان عاقلاً فبالمعاقله ومن كان غير ذلك فبالمحامقة على حسب تعبيره:

وَأَنْزَلَنِي طَوْلُ النَّوَى دَارَ غَرِيَةٍ إِذَا شِئْتُ لَأَقِيْتُ امْرَأَةً لَا أَشَاكِلُهَا

أُحَامِقُهَا حَتَّى يُقَالَ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أَعَاقِلُهَا (الشافعي، ١٢٠)

إلاَّ أنَّه مع انشراح صدره لكل الأطياف ومداراته كل الأصناف، تجده لا يتنازل لمن فيه شئ من الحسد الذي لا يرضي صاحبه بأقل من زوال النعم، فيقول:

و دَارَيْتُ كُلَّ النَّاسِ وَلَكِنْ حَاسِدِي مَدَارَاتُهُ عَزَّتْ وَعَزَّ مَنَالُهَا

و كيف يداري المرء حاسدَ نعمةٍ إِذَا كَانَ لَا يُرْضِيهِ إِلَّا زَوَالُهَا ؟ (الشافعي، ١٢١)

كما أنَّه يشير إلى مجانبة من لم يبق فيه من محاسن العادات ومعالي المروءات إلاَّ الخداع والتملق. فمن كان كالزهر

إذا نظر إليك وكالشوك إذا مسك فلا بد أن تكون عليه كالنار ترميه بشارك حتى يحترق:

لم يبق في الناس إلا المكر والملق شوك إذا لمسوا زهر إذا رمقوا

فإن دعتك ضرورات لعشرتهم فكن جحيماً لعل الشوك يحترق (الشافعي، ١٠٤)

و في قراءة كلية نستطيع القول بأن الشافعي كبعض الأدباء والمفكرين يميل بعض الميل إلى التشاؤم بالناس المعاصرين له؛ يتبرم منهم أحياناً ولا يرى فيهم إلا شراً؛ فيرى أن الأفاضل قد ذهبوا ولم يبق سوى الأراذل:

عبرت الدهر ملتمساً بجهدي أبا ثقة فألهاني التماسي

تنكرت البلاد ومن عليها كأن أناسها ليسوا بناس (الشافعي، ٨٩)

و يصنف فقيهننا الناس صنفين؛ الحاسدين في الراحة والرخاء والشامتين للمسورين في الشدة والبأساء فيقول:

تقلب في دهري رخاءً وشدة وناديت في الأحياء هل من مساعد؟

فلم أر فيما ساءني غير شامت ولم أر فيما سرني غير حاسد (الشافعي، ٧١)

و قد تجد الشافعي الشاعر - أحياناً - يخرج من خطاباته العامة ويخص بعض الصنوف بالانتقادات اللاذعة كفسقة العلماء والقضاة المتورطين في وحل الدنيا. من طرائف أقواله في هذا المجال ما قاله في قضاة عصره:

قضاة الدهر قد خسروا وقد بانت خسارتهم

و باعوا الدين بالدنيا فما ربحت تجارتهم!

و أما من الناحية الدينية فأكثر الناس - في نظره - محدثون للبدع مستخفون بحقوق الله غير مخلصين فيما يقومون به من أداء لتلك الحقوق. فيقول:

لم يفتأ الناس حتى أحدثوا بدعاً في الدين بالرأي لم يُعَث بها الرسل

حتى استخف بحق الله أكثرهم وفي الذي حملوا من حقه شغل (الشافعي، ١١٩)

و مع ذلك كله نجده لا ينسى ما في الصداقة من خالص الحب والود ويتحسر على رجل يعيش بعد الأصدقاء:

واحسرة للرجل ساعة يعيشها بعد أودائه

عمر الفتى لو كان في كفه رمي به بعد أحبائه (الشافعي، ٤٢).

ويبلغ به المطاف إلى أن يسلم على الدنيا سلام مودع إن كانت فارغة من خليل أو صديق وينتظر الموت و لا يأمل في طول الحياة حتى لا يسوءه موت أحبته: سلاماً على الدنيا إذا لم يكن بها صديقٌ صادقٌ الوعد مُنصفاً (الشافعي، ١٠٠)

xxx

سأصبر للجحام وقد أتاني وإلا فهو آت بعد حين

و إن أسلم يمت قبلي حبيب وموت أحبتي قبلي يسوني (الشافعي، ١٧١)

٢-٦. الاعتراض على تمتع الجهال وحرمان العقلاء: فقد تعرض الشافعي لهذا الموضوع قبل أن يجيء ابن الراوندي بقولته المشهورة:

كم عاقل عاقل أعيت مذهبهُ وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

هذا الذي ترك الأوهام حائرةً وصيرَ العالمَ التحريرَ زنديقا (القزويني، ٨٢/٢)

فتراه يعترض ويبث شكواه لتقدم ذوي الجهل وتمتعهم بمتاع الدنيا ورغد العيش وتأخر الأحرار الشرفاء وحرمانهم من غالب قوتهم. لكنه مع ما يلم به من ألم وإساءة وإحراج نفس، يرجع الأمر - كامثاله من الناقدين - إلى الدهر وتقلباته وتصرفاته العشوائية وحتى إلى قضاء الديان ويدعو إلى التصبر أمام هذا الوضع:

تموتُ الأسدُ في الغاباتِ جوعاً ولحمُ الظأنِ تأكلُهُ الكلابُ
و عبدٌ قد ينامُ على حريرٍ وذو نسبٍ مفارشُهُ التُّرابُ (الشافعي، ٤٥)

xxx

أرى حُمراً ترعى وتعلف ما تهوى وأسداً جيعاً تظمأ الدهرُ لاتروى
و أشرافُ قومٍ لاينالون قوتهم وقوماً لثاماً تأكلُ المنُّ والسَّلوى
قضاءً لديانٍ الخلائقِ سابقُ وليسَ على مرِّ القضا أحدٌ يقوى
فمن عرف الدهرَ الخوؤنَ وصرْفَه تصبّر للبلوى ولم يُظهرِ الشُّكوى (الشافعي، ١٦٥)

و ممّا يتعرض له في هذا السياق كأمير واقع وليس كأمير حسن طبعاً، هو أنّ المال والغنى أو الجَدَّ على حسب تعبيره مفتاح لكل أمر مغلق. فمن تمتع به فاز بأوفر الحظوظ ومن لم يظفر بشئ منه سقط في أعين الناس؛ فلا أحد يأبه به ولا أحد يلتفت إليه. وتراه كغيره من أهل العلم والأدب يرى أنّ بين الشرف والحرية والعلم من جانب وبين المال والغنى من جانب آخر، تضاد ومفارقة ذاتية لا يكاد يجمع بينهما أحد. ومما قد يعجب منه القارئ أنّه يستدل بهذا الوضع والاتجاه القابل للنقد، على وجود القضاء والقدر وتحكّمهما بالوضع القائم والظروف الراهنة التي يعيشها الناس:

الجَدُّ يُدني كلَّ أمرٍ شاسعٍ والجَدُّ يفتحُ كلَّ بابٍ مُغلقٍ
فإذا سمعتَ بأنَّ مجدوداً حوى عوداً فأثمرَ في يديه فصْدقِ
و إذا سمعتَ بأنَّ مكدوداً أني ماءً ليشربَه فغاضَ فحقِّقِ
لو كان بالحَيَلِ لغنى لوجدتني بنجومٍ أقطارِ السماءِ تعلّقني
لكنَّ من رُزقِ الحجا حُرماً الغنى ضِدانٍ مفترقانِ أيّ تفرّقِ

و من الدليل على القضاء وحُكمِهِ بؤسُ اللبيبِ وطيبُ عيشِ الأحمقِ (الشافعي، ١٠٤)

فما هو موقف الحكيم تجاه وضع رفعتة الدنيا أو سفيه قدمه الدهر على أولي النهي حينما يخاطبه هو بسفاهته وقبح كلامه؟ فهل يسوّغ له حلمه وحكمته موقفاً غير السكوت والرزانة والإعراض؟ انظر اليه ماذا يقول في هذا المجال :

يُخاطبني السفيةُ بكلِّ قُبْحٍ فأكرهُ أن أكونَ له مُجيباً
يزيدُ سفاهةً فأزيدُ حِلماً كعودٍ زاده الإحراقُ طيباً (الشافعي، ١٥٦)

xxx

و يقول ايضاً:

إذا نطق السفيةُ فلا تجبهُ فخيرٌ من إجابته السكوتُ
فإن كلمتهُ فرجت عنهُ وإن خليتهُ كمدأ يموتُ (الشافعي، ١٥٧)

٧-٢. فضل العلم وأهله: للعلم مكانة خاصة في شعر الشافعي. فمن لم يقض حقبة من دهره في التعلم فهو كميث يجوز التكبير والصلاة عليه، ومن لم يسهل على نفسه مشقة التعلم وجفاء المعلم فليصبر على المهانة طول حياته. وإن ما يرفع من شأن الذات البشرية ويجعلها محلاً للاحترام والتقدير هو العلم والتقوى. فمن ليس له علم ولا تقوى فلا قيمة له ولا اعتبار:

تَصَبَّرَ عَلَى مَرُّ الْجَفَا مِنْ مُعَلِّمٍ فَإِنَّ رَسُوبَ الْعِلْمِ مِنْ نَفَرَاتِهِ
وَمَنْ لَمْ يَذُقْ مَرَّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً تَجَرَّعَ ذَلَّ الْجَهْلِ طَوْلَ حَيَاتِهِ
وَمَنْ فَاتَهُ التَّعْلِيمُ وَقْتُ شَبَابِهِ فَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا لَوْفَاتِهِ

و ذاتُ الفتى واللّه بالعلم والتقوى وإذا لم يكونا لا اعتبار لذاته (الشافعي، ٦٠)

و في المقابل فإن صاحب العلم كريم في ذاته بغض النظر عن أصله وحسبه؛ يعظمه الكرام ويعرف به الحلال والحرام. فالصغير كبير إذا كان من أهل العلم والكبير صغير إن لم يكن منهم. يقول الشافعي في هذا الصدد:

رَأَيْتُ الْعِلْمَ صَاحِبَهُ كَرِيمٌ وَلَوْ وَلَدَتْهَا بَاءُ لثَامٌ
و لَيْسَ يَزَالُ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْ يُعْظَمُ أَمْرُهُ الْقَوْمُ الْكَرَامُ
و يَتَّبِعُونَهُ فِي كُلِّ حَالٍ كِرَاعِي الظَّانِّ تَتَّبِعُهُ السَّوَامُ
فَلَوْلَا الْعِلْمُ مَا سَعَدَتْ رِجَالٌ وَلَا عُرِفَ الْحَلَالُ وَلَا الْحَرَامُ (الشافعي، ١٣٢)

xxx

و يضيف في هذا الصدد قائلاً:

تَعَلَّمَ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُؤَلَّدُ عَالِمًا وَلَيْسَ أَخُو الْعِلْمِ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ
و إِنَّ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ صَغِيرٌ إِذَا تَلَقَّتْ عَلَيْهِ الْجَحَافِلُ^٥
و إِنَّ صَغِيرَ الْقَوْمِ إِنْ كَانَ عَالِمًا كَبِيرٌ إِذَا رُدَّتْ إِلَيْهِ الْمَحَافِلُ (الشافعي، ١١٩)

وبعد هذا الكلام عن العلم ومنزلته، يعترف الشافعي بأن هذا العلم الرفيع، ليس بسهل المنال عنده ولا يولد أحد عالمًا، بل لابد لنيل العلم من أرضية وأسباب. فإذا ما توقرت لطالب العلم أسبابه، تيسر له نيله:

أَخِي لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلَّا بِسِتَةٍ سَأُنَبِّئُكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بَيَانٍ
ذِكَاؤٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ وَبَلْغَةٌ وَصَحْبَةٌ أَسْتَاذٍ وَطَوَّلُ زَمَانٍ (الشافعي، ١٦٤)

٨-٢. فوائد السفر والاعتراب: كان فقيهنا الشاعر كثير التجوال لا يكاد يستقر في بلد. فمنذ نعومة أظفاره أخذ في السفر ينتقل من بلد إلى آخر؛ فمن مولده غزة إلى عسقلان ثم إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة فالهذيل فاليمن فبغداد فمصر. يقيم في بلد ثم يخرج منه ليعود إليه ثانية. فتراه تارة يترك مولده ثم يشتاق إليه فيقول: «وإني لمشتاق إلى أرض غزة». يسكن بغداد ويهوى مصر في نفس الوقت فينشد: «لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر». وتارة أخرى، يرى في السفر فوائد يسهل دونها قطع المسافات ووحشة الاعتراب:

تَغَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَى وَسَافِرٍ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدٍ

تَفَرَّجُ هُمْ وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ وَآدَابٌ وَصَحْبَةٌ مَاجِدٍ (الشافعي، ١٥٩)

يرى الشافعي أهمية كل شي - إن لم نقل حياته - في السير والحركة. فالماء يطيب ويعذب إذا ما تحرّك وجرى ويفسد إذا

ما ركذ وتوقف. والشمس كذلك يملأها الناس لو توقفت في فلك والسهم لا يصيب شيئاً ما لم يفارق القوس. كما أن الأسد لاتسح له فرصة الافتراس ما لم يخرج من الأجمة:

ما في المقام لذي عقلٍ وذو أدب من راحةٍ فدع الأوطانَ واغترِبِ
سافر تجد عوضاً عن تفارقه وانصب فإنَّ لذيدَ العيشِ في النصبِ
إني رأيتُ وقوفَ الماءِ يُفسدُه إن ساحتَ طابَ وإن لم يجِرْ لم يَطِبِ
و الشمسُ لو وقفت في الفلكِ دائماً ملأها الناسُ من عجبٍ ومن عَرِبِ (الشافعي، ٥٤)

و مع ذلك كله فهو لا ينسى ذكريات وطنه الأول فالأدمي مطبوع على حب الوطن ومنزله الأول. يتذكر غزوة أحياناً وينشد فيها أبياتاً تعبر عن شدة شوقه إليها:

و أني لمشتاقٌ إلى أرض غزوة وإن خانني بعدَ التفرقِ كتمانِي
سقى الله أرضاً لو ظفرتُ بتربها كحلتُ به من شدةِ الشوقِ أجفاني (الشافعي، ١٤)

٩-٢. حب أهل بيت النبوة: عاش الشافعي عصرًا سبقه نضال سياسي دائر بين أحزاب متناحرة في ساحة السياسة آنذاك. وكان الشعر - فخرًا وهجواً - يعدّ من أبرز العناصر أو المعدات والآليات اللازمة للخوض في تلك المعارك والتحديات. فكان لكل طائفة شاعرها يحتج لها ويدافع عنها وينال من شأن خصومها ومناهضيها. كالكميت والطرماح وعبيد الله بن قيس الرقيات. وكان ينتمي كل منهم إلى تيار سياسي خاص من شيعة وخوارج وزيرية. فلما آل الأمر إلى بني العباس من آل هاشم، لم يبق في الساحة من يعتد به إلا العلويون وشيعتهم الذين يعانون من ضغوط سياسية يمارسها العباسيون ضدهم. فلا يسعهم إلا الولاء والتعاطف مع العلويين سرًا في غالب الأحيان وعلناً كلما يتيسر لهم. ولم يكن للشافعي انتماء سياسي بهذا المعنى بل لعلي لم أجانب الصواب إن قلت لم تكن فيه نزعة سياسية بتاتاً. فلم يخض في أي حراك سياسي وخصوصاً النضال الدائر بين العلويين وبني عمهم العباسيين. فقد وقف - من الناحية السياسية - على مسافة واحدة من الطرفين. وهذا كلام لا أظن أن أحداً يخالفني فيه. إذ لا يوجد فيما تركه من تراث مكتوب أو مروي كما لم يرو عنه أحد أنه انضم أو انحاز إلى تيار سياسي من التيارات السائدة حينذاك. ومع ذلك كله فقد حمله حبه وولؤه لآل البيت إلى الإكثار من ذكرهم وبيان مناقبهم ونشر مآثرهم من غير أن يقارنهم بغيرهم أو ينال من غيرهم لصالحهم. وقد بالغ في ذلك حتى عزي إليه مقالات هي بكلام الغلاة أنسب وإلى أقوالهم أقرب. فلما اشتهر منه ذلك، اتهموه بالتشيع والانحياز إلى التيار العلوي. فوشى به الوشاة عند الخليفة العباسي هارون الرشيد. فاستدعاه وعقد له مجلساً قضائياً وهياً له مجالاً للدفاع عن نفسه. فنفي التهمة وأثبت منها فخلّى الرشيد سبيله وأمر له بجائزة فرّقها قبل أن يفارق عتبة دار الخلافة. (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٠، ص ٦٢؛ أمين، ج ٢، ص ٢١٨) ولكنه لم يصرفه الخوف من تلك التهم والمجالس عن البوح بما كان يعتقده في الإمام علي وسبطيه وأمهما الزكية بحسب تعبيره. فهو يذكر فضائل آل البيت وينشرها نظماً ونثراً في كل مناسبة ومجلس. كقوله:

آل النبيّ ذريعتي وهمُ إليه وسيلتي
أرجو بهم أعطى غداً بيدي إليمينِ صحيفتي (الشافعي، ٥٩)

و يخص بالذكر الإمام فتراهي تتبع كل مناسبة ليذكر فيها مناقبه ويغتنم كل فرصة متاحة لنشر فضائله. ويصرّح بتولية

رجل يراه خير إمام وأفضل هادٍ ولا يبالي بتشدقات قوم يرمونه بالرفض:

قالوا تَرَفُّضْتَ قَلْتُ كَلَّا ما الرِفْضُ ديني ولا اعتقادي

لكن تَوَلَّيْتُ غيرَ شَيْ خَيْرَ إمامٍ وخَيْرَ هادٍ

إذا كان حُبُّ الوليِّ رِفْضاً فَإِنَّ رِفْضِي إلى العبادِ (الشافعي، ٧٢)

و كان الرِفْضُ مصطلحاً سياسياً بحثاً يطلق على الشيعة الرافضيين أي التاركين كل ما يخالف عقائدهم المذهبية الخاصة ومواقفهم السياسية آنذاك. والمشهور عند المؤرخين أن المصطلح أخذ من كلام لزيد بن علي بن الحسين عندما تهيأ للخروج على السلطة الحاكمة واستنصر بالمعارضة بما فيها العلويون وأشياهم فرفض طائفة منهم نصرته والقيام معه لأسباب وحجج قامت عندهم على الرغم مما قام به زيد من ردٍّ على تلك الحجج. (أمين، ٢٧٥/٣) والشافعي لم يتأثر بالنزعات السياسية كما قلنا ولم يقل ما قاله في علي وأولاده بداع سياسي، فلا معنى لإتهامه بالرفض. من هذا المنطلق نراه يفرق بين الرِفْضِ وحُبِّ آل البيت فلا يصح عنده تسمية كل من يحب آل البيت رافضياً:

إذا في مجلسٍ نذكر علياً وَسِطِيهِ وفاطمةَ الرِّكْيَةِ

يُقَالُ تَجَاوَزُوا يا قَوْمُ هذا فهذا من حديثِ الرِّافِضِيَّةِ

بَرِئْتُ إلى المُهَيِّمِينَ من أناسٍ يَرَوْنَ الرِفْضَ حُبَّ الفاطميَّةِ (الشافعي، ١٥٢)

و لكن في النهاية تجده لا يبالي لكلام من يصرّ على أنّ حُبَّ آل النبي هو الرِفْضُ بعينه، فيعتبر نفسه - والحال هذه - رافضياً لا يتخلّى عن حُبِّ آل البيت لمجرد اسم يتنطق به متعصبون متعنتون:

يا راكباً قِفْ بالمُحْصَبِ من مَنِي واهتف بقاعدٍ حَيفِها والنَّاهِضِ

سَحَرًا إذا فاض الحَجِيجُ إلى مَنِي فيضاً كُمُلِطِمِ الفِراثِ الفائِضِ

إن كان رِفْضاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فَلْيَشْهَدْ الثَّقَلانِ إِنِّي رافِضِي! (الشافعي، ٩٣)

كيف لاو هو -كفقيه عارف بالقرآن والسنة وحقوق المصطفى (ص) وأهل بيته- يدرك أن محبة آل البيت من الفروض التي جاء بها القرآن؛ فيفتي ببطان صلاة كل من ترك الصلوة عليهم في صلواته فيقول:

يا آلَ بيتِ رسولِ اللَّهِ حُبُّكُمْ فَرَضٌ من اللَّهِ في القرآنِ أَنْزَلَهُ

يَكْفِيكُمْ من عَظِيمِ الفَخْرِ أَنْتُمْ من لَمْ يُصَلِّ عَلَيْكُمْ لا صَلاةَ لَهُ (الشافعي، ١١٥)

و لبعض الباحثين بسط مقال في هذا الموضوع فمن أراد المزيد فليراجعه (مير قادري، ١٤٢٦، ١٤٨-١٢٧).

١٠٠٢. فضائل أخرى: لا تكاد توجد فضيلة أو مكرمة إلا وفي كلام الشافعي - خصوصاً المنظوم منه - ما يؤيدها ويحث عليها وهو مما أشرنا إليه في المقدمة. ويسوغ لنا القول بأن للفضائل ومكارم الخلق مكانة متميزة في ديوان الشافعي. من هذه الفضائل والمحاسن يمكن أن نذكر العفة والنزاهة والسخاء والوفاء والتواضع وعلو الهمة والإبتعاد عن الدناءة وسفساف الأمور. فتجده عندما يتكلم عن العفة مثلاً عارفاً بهذه الصفة مدركاً لها فيأتي بمبدأ أخلاقي سلوكي ويقول: "إذا كان ربّ البيت عفيفاً فإن العفة تسري إلى حرمة وأسرته". أو: "من أراد العفة لأسرته وذويه فليستعفف هو أولاً". مشيراً إلى ضرورة الابتعاد عن كل ما لا يتفق والقيم التي يجب أن يلتزم بها المسلم كقاعدة عامة:

عَفَّوا تَعَفُّ نساؤكم في المحرم وتَجَنَّبُوا ما لا يليقُ بمسلم (الشافعي، ١٣٤)

و أما عن الوفاء والسماحة فيخاطبنا الشافعي مطالباً أن نلتزم بهما في كل الأحوال حتى في النوائب والأحوال:

و كن رجلاً على الأهوالِ جلدًا وشيمتك السماحةُ والوفاءُ (الشافعي، ٣٩)

و يوصينا ايضاً بأن نتخذ الجود والسخاء غطاءً نستر بها عيوبنا إن كان هناك من عيوب:

و إن كثرت عيوبك في البرايا وسرّك أن يكونَ لها غطاءً

تَسْتَرُّ بالسَخاءِ فكلُّ عيبٍ يُعْطِيهِ كما قِيلَ السَخاءُ (الشافعي، ٣٩)

و مما يلفت النظر في شخصية الشافعي زهده وحبه لفعل الخير فأقصى ما يأسف عليه من متاع الدنيا، مال ليس لديه

ليفرقه على ذوي الحاجات ويعتبر الاعتذار على مَنْ يسأله ما ليس يملكه مصيبة من المصائب:

يا لهفَ نفسي على مالٍ أفرقُهُ على المُقْلِينَ من أهلِ المروءاتِ

إنَّ اعتذاري على من جاء يسألني ما ليس عندي لمن إحدى المصيباتِ (الشافعي، ٥٨)

و مهما يكن للشافعي من ترفع وإباء وأنفة أمام الدنيا وأهلها، فهو رجل التواضع في مجال العلم والعمل الصالح؛ يضع

نفسه دون مرتبتها الحقيقية من مراتب العلم والفضل والصلاح. فكلما ازداد علماً علم أن ما يجعله أكثر مما يعلمه:

كلّما أدبني الدهـ رُأراني نقصَ عقلي

و إذا ما ازدددتُ علما زادني علماً بجهلي (الشافعي، ١٢٤)

و الشافعي عالم يحب الصالحين رجاء نيل الشفاعة في زمريهم ولا يرى نفسه من جملتهم؛ ويكره أهل المعصية مع أنه لا

يرى بضاعته غير بضاعتهم:

أحبُّ الصالحين ولستُ منهم لعلي أن أنالَ بهم شفاعَه

و أكرهُ من تجارته المعاصي وإن كنا سويّاً في البُضاعَه (الشافعي، ٩٦)

الخاتمة

لقد اتضح مما أسلفنا أن ما توافر للشافعي من نشأة وجهد وخلفيات ثقافية، أهله لأن يكون من أئمة اللغة والأدب. وهو كرجل من رجال الدين وقف على مسافة واحدة من الآراء المتضاربة المتأتية من آيات وأحاديث حول الشعر. فهو رجلاً معتدلاً الطبع يأخذ في كل الأمور بأوساطها؛ لا يميل إلى تفريطها ولا يرغب في إفراطها. يرى في الشعر شيئاً من الإزدراء بالعلماء فلم يتأت له المبالغة وإرخاء العنان له. لكنه لما كان مطبوعاً على الشعر، لم يسعه التخلي عنه كلياً- كشأن كل ما طبع عليه الإنسان - فانطلق على لسانه ما كان يختلج في صدره صدقاً وإخلاصاً. ولما رأى أن الكلام المنظوم له أثره ووقعه في النفوس، انتهز كل فرصة متاحة لتنظيم الكلام واتخذ كوسيلة مجدية لبيان كلما كان يقصده ويدعو إليه من معالي الأمور ومحاسن الخلق.

و يمكن القول إن المصادر الأخلاقية لشعره ثلاثة هي: الفضائل والمحامد المتوارثة عن العرب، والمبادئ والمعايير التي أتت بها الشريعة، والنزعة الأخلاقية الراسخة في نفسه، والذي حملته على الشعر الحكمى الأخلاقي الصادر عن هذه المصادر المتمازجة في شخصيته، أمور عدة تتلخص في الإجابة والإفادة والإثارة؛ فأما الإجابة فهي لداعي الطبع وأما الإفادة فبما يستحسنه الخلق والشرع وأما الإثارة فهي ضد ما كان يُدعى إليه من مستقبح الأمور في عصره. فاستسلم لما يمليه عليه طبعه أو حملته عليه عاطفته أو استحسنته عقيدته الشرعية من الحكمة والخلق.

و يصح لنا القول بأن أكثر ما جاء في ديوانه من الشعر يفيض بالحكمة والكلام المأثور في الخلق الحسن. ولقد جعل الفضائل الأخلاقية المحل الأول في حياته وسلوكه وحكم الخلق في كل ما كان يقوله من الشعر. فنرى معظم شعره - إن لم نقل كله - تبشيري إيديولوجي ملتزم بكل معايير الفضيلة ومعاني الخير. فاستحق أن يُسمّى شاعر الحكم والقيم. فعلى الرغم من أنه قد مضى عليه ما يزيد على ألف ومئتي عام فإن شعره لا يزال حياً فينا قوى التأثير في أنفسنا؛ يملؤنا إعجاباً بحرصه على التمسك بمثله العليا ومعايير المثلى. وقد اتخذ هذا الموقف فيما نرى كردة فعل على ما غلب على أحوال أكثر شعراء عصره من لهو ومنكر ومجون. حيث كان يعيش في بيئة ويتنفس في أجواءٍ ظهر واشتهر فيها شعراء يدعون إلى الأباحة والخروج على الفضائل والتقاليد المحمودّة؛ يهيّمون في كل واد من أودية الكلام خصوصاً الباطل منها؛ يعيشون عيشة بذخ ولهو وترف، ولا يقفون عند القيم وقفة التزام واحترام وإنما ينظرون إليها نظرة ازدراء واختراق.

الهوامش

١. ولد الشافعي عام ١٥٠ بغزة وتوفي عام ٢٠٤ بمصر. راجع ترجمته في الأعلام للزركلي، ٢٧/٦-٢٦؛ الأنساب للسمعاني، ٢٥٤/٧-٢٥١؛ تاريخ الإسلام للذهبي، ٣٤٢/٢١-٣٠٤؛ حلية الأولياء للإصفهاني، ١٦١/٩-٦٣؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ٩٥/١-٥؛ وفيات الأعيان لابن خلكان، ١٦٩/٤-١٦٣.
٢. روي أن الشافعي لما دخل سر من رأى تقدم إلى مزّين وعليه أطمار رثة وقد طال شعره. فقال المزّين تمضى إلى غيري نظراً لثرائه ملابسه. فاشتد عليه ذلك فالتفت إلى غلام كان معه وأمره بدفع ما بقي عنده من نفقة السفر إلى المزّين فدفعها وولّى الشافعي وهو ينشد الأبيات المذكورة (الإصفهاني، ١٩٨٨، ١٣١/٩).
٣. قنع، يقنّع، قناعة: الرضى بما لديك وقنّع، يقنّع، قنوعاً: السؤال مع التذلل.
٤. لا يكن ظنك إلا سيئاً
إن سوء الظن من أقوى الفطن
- ما رمى الإنسان في مخمصة
غير حسن الظن والقول الحسن (الشافعي، ١٣٦)
٥. الجحافل جمع جحفل: الجيش الكبير.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. ابن خلكان، شمس الدين، (لاتأ)، وفيات الأعيان، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٣. ابن السبكي، تاج الدين، (١٩٧٨ م)، طبقات الشافعية، بيروت، دار الفكر.
٤. أبو نواس، الحسن بن هاني، (٢٠٠٨ م)، الخمریات، بيروت، مكتبة الهلال.
٥. الإصفهاني، أبونعيم، (١٩٨٨ م)، حلية الأولياء، بيروت، دار الكتب العلمية.
٦. أمين، أحمد، (١٩٩٠ م)، ضحي الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي.
٧. بديع يعقوب، إميل، (٢٠٠١ م)، ديوان الإمام الشافعي، بيروت، دار الكتاب العربي.
٨. البيهقي، أبوبكر، (لاتأ)، السنن الكبرى، بيروت، دار المعرفة.
٩. الحموي، ياقوت، (١٩٩٢ م)، معجم الأدباء، بيروت، دار الفكر.
١٠. دائرة المعارف الإسلامية، (١٩٨٧ م)، بيروت، دار المعرفة.
١١. الدمشقي، ابن أبي العزّ، (١٩٩٤ م)، شرح العقيدة الطحاوية، بيروت، مؤسسة الرسالة.
١٢. الذهبي، محمد بن أحمد، (٢٠٠٠ م)، تذكرة الحفاظ، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
١٣. الذهبي، محمد بن أحمد، (١٩٩٠ م)، سير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسسة الرسالة.

١٤. الزحيلي، وهبة، (٢٠٠١ م)، *التفسير المنير*، دمشق، دار الفكر.
١٥. الزركلي، خير الدين، *الأعلام*، بيروت، دار العلم للملايين.
١٦. سرياز، حسن، (١٤٣١ م)، دراسة حول قضية ضعف الشعر في صدر الإسلام، *مجلة العلوم الإنسانية الدولية*، العدد ١٧ (٣) طهران، جامعة تربيت مدرس.
١٧. السمعاني، أبوسعيد، (١٩٨٨ م)، *الأنساب*، بيروت، دار الجنان.
١٨. الشافعي، الإمام محمد بن إدريس (١٩٨٤ م)، *ديوان الشعر*، بيروت، دار الكتب العلمية.
١٩. الغرالي، الإمام أبوحامد، (١٩٨٦ م)، *إحياء علوم الدين*، بيروت، دارالكتب العلمية.
٢٠. الفاخوري، حنا، (١٩٨٧ م)، *تأريخ الأدب العربي*، بيروت، المكتبة البولسية.
٢١. القزويني، ابن ماجه، (١٤١٦ م)، *سنن ابن ماجه*، بيروت، دار المعرفة.
٢٢. القزويني، جلال الدين، (١٤١٢ م)، *الإيضاح*، القاهرة، مكتبة الحلبي.
٢٣. المباركفوري، صفي الرحمن، (١٤١٩ م)، *الرحيق المختوم*، بيروت، دار الفكر.
٢٤. المحلي، جلال الدين، (١٤٢٩ م)، *البدر الطالع*، بيروت، مؤسسة الرسالة.
٢٥. ميرقادري، فضل الله، (١٤٢٤ م) *أهل بيت در ديوان امام شافعي*، تهران، *مجله انجمن ايراني زبان و ادبيات عرب*.
٢٦. ناصف، منصور علي، (١٤٠٦ م)، *التاج الجامع للأصول*، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٢٧. التيسابوري، مسلم بن الحجاج، (١٤١٥ م)، *صحيح مسلم*، بيروت دار المعرفة.

References

1. The Holy Qur'an
2. Ibn Khallikan (Undated); *Wafayat al-Ayan* (Mortality Objects), Beirut: Revival of Arabic Heritage.
3. Ibn al-Sobki, Taj al-Din, (1987); *Tabaghat al-Shafe'aya* (Shafei's Layers), Beirut: Thought Publications.
4. Abu Nuwas, Al-Hasan bin Hani, (2008); *Al- Khamriyat*, Beirut: Al-Helal Publication.
5. Al- Isfahani, Abou No'a'im, (1988); *Helyat al-Aoleya*, Beirut: Scientific Books Publications.
6. Amin, Ahmad, (1990); *D'oha al-Islam* (Islamic Sacrifice), Beirut: Arabic Books Publication.
7. Badi'a, Ya'aghoub, Emil, (2001); *Diwan al- Imam al- Shafe'i*, (Shafe'i's Poetical Works), Beirut: Arabic Books Publications.
8. Al-Bayhaghi, Abubakr, (Undated); *Al-Sonan al-Kobra*, Beirut: Encyclopedia.
9. Al-Hamawi, Yaghoot, (1992); *Mo'ajam al-Odaba*, (Dictionary of Literature), Beirut: Thought Publication.
10. ----- (1987); *Daerat al-Ma'arif al-Islamiya* (Islamic Encyclopedia), Beirut: Encyclopedia Publication.
11. Al-Demashghi, Ibn Abi al-Izz, (1994); *Sharh al-Aghidat al-Tahawya* (Description of Tahawiya Faith), Beirut: Resalah Institute.
12. Al-Zahabi, Mohammad bin Ahmad, (2000); *Tazkerat al-Hoffaz*, Beirut: Revival of Arabic Heritage.
13. -----, (1990), *Seir al-A'alam al-Nobala*, Beirut: Al-Resalah Institute.
14. Al-Zohayli, Wahba, (2001); *Al-Tafsir al-Monir*, Damascus: Thought Publication.
15. Al-Zerekli, Khayr al-Din, (1980); *Al-A'alam* (The World), Beirut: Millennium Scientific Publications.
16. Sarbaz, Hasan, (1431); *Derasa Hawl Ghziya al-Shi'ar fi Sadr al-Islam* (A Study on the Weakness Issue of Verses during Early Islam), *International Journal of Humanities*, No. 17(3), Tehran, Tarbiat Modares University.
17. Al-Sam'ani, Abu Sa'aed, (1988); *Al-Ansab* (Genealogy), Beirut: Janan Publication.
18. Al-Shafe'ai, Mohammad bin Idris, (1984); *Diwan al-Sheir* (Poetical Works), Beirut: Scientific Books Publication.
19. Al-Gazali, Abu Hamid, (1986); *Ihya Olom al-Din* (Revival of Islamic Education), Beirut: Scientific Books Publication.
20. Al-Fakhouri, Hanna, (1987); *Tarikh al-Adab al-Arabi* (History of Arabic Literature), Beirut: Pauline Publications.
21. Al-Ghazwini, Ibn Maja, (1987); *Sunan Ibn Maja*, Beirut: Encyclopedia.
22. Al-Ghazwini, Jalal AL-din, (1983); *Al-Id'ah* (Clarifications), Cairo: Halabi Publications.
23. Al-Mobarakpoori, Safi al-Rahman, (1990); *Al- Rahigh al-Makhtoom* (The Sealed Nectar), Beirut: Thought Publication.
24. Al-Mahalli, Jalal AL-din, (2000); *AL-Badr al-Tale'a*, (Badr Horoscope), Beirut: Al-Resalah Institute.

25. Mirghaderi, Fa'dl Allah, (1997); Ahl al-Bayt dar Diwan Imam Shafe'i, (The Prophetic Family in the Works of Imam Sahe'i), Tehran: *Journal of the Iranian Association of Arabic Language and Literature*, No. 12.
26. Nasif, Mansour Ali, (1977); *Al-Taj al-Ja'ami' lil-Osoul* (Comprehensive Principles), Beirut: Revival of Arabic Heritage.
27. Al-Naysabouri, Moslim bin Hajjaj, (1415); *Sahih Moslim*, Beirut: Encyclopedia.